

معركة الحديدة في اليمن.. أوهام النصر

بشرى القطري



الأحد 25 نوفمبر 2018 04:11 م

أخذت الحرب في اليمن منحىً تصعيدياً لافتاً، إذ دخلت أطراف الصراع اليمنية وحلفاؤها الإقليميون في سباق مع الزمن، من أجل تغيير موازين القوى لصالحها، قبل تثبيت دعوات وقف إطلاق النار على الأرض.

فقد شهدت الأسابيع الأخيرة تصاعد العمليات العسكرية للتحالف العربي في معظم الجبهات اليمنية، بما في ذلك جبهة صعدة، وأخذ هذا التصعيد شكلاً أكثر مفصلياً في مدينة الحديدة.

فبعكس الجولات السابقة التي تموضعت فيها المعارك بين القوات المشتركة ومقاتلي جماعة الحوثي في حدود الكيلو 16، اتسمت الجولة الحالية باتساع رقعة المواجهات بين المتقاتلين التي امتدت ما بين الجهة الشمالية الشرقية من المدينة والجهة الجنوبية، إضافة إلى امتداد القتال إلى الأحياء الداخلية في المدينة.

لتبدأ، ولأول مرة منذ بدء استهداف التحالف العربي الحديدة، حرب عنيفة للسيطرة على الشوارع الداخلية فيها، حيث سيطرت القوات المشتركة على مواقع استراتيجية وحيوية، تنوّعت ما بين مبانٍ ومؤسسات ومستشفيات، وأحياء سكنية؛ وهو تغييرٌ لافت في طبيعة القتال في جبهة الحديدة.

إذ انتقلت الحرب إلى السيطرة على الأحياء، لتصل المعارك على بعد خمسة كيلومترات من ميناء الحديدة، بهدف تأمين الميناء، وفرض حصار على مقاتلي جماعة الحوثي في المدينة، وتطويرهم.

فرضت تطورات معركة الحديدة عبئها على جماعة الحوثي، إذ أصبحت مستنزفة عسكرياً وبشرياً، إضافةً إلى خوض مقاتليها القتال في جميع الجبهات المفتوحة، تزايد الضغط على الجماعة في مدينة الحديدة.

لذلك تحوّلت إلى الدفاع عن مواقعها، بعد أن كانت تخوض سابقاً حروب استرداد المناطق من القوات المشتركة، عبر الالتفاف عليها وقطع خطوط الإمداد، وهو ما جعلها تجمد بعض الجبهات الأقل أهميةً في انتظار تغيير موازين القوى في جبهة الحديدة لصالحها.

كما سحبت من الجبهات الأخرى آلاف المقاتلين، وزجّتهم في جبهة الحديدة، إذ إن خسائرها الباهظة في المدينة، والتي فاقت، في أسبوع، ألف قتيل وجريح، من بينهم قيادات عسكرية، أدت إلى هرب كثيرين من مقاتليها.

وهو ما دفع الجماعة إلى قصر الحوافز المالية على مقاتليها في جبهة الحديدة، إلا أن الأهم هو انعكاس تطورات المعركة، بما في ذلك تضرر حركة الميناء، على إدارتها المناطق الخاضعة لها، وأثر ذلك على شبكة تحالفاتها الضيقة.

يبرز خطاب زعيم الجماعة، عبد الملك الحوثي، أخيراً، مؤشراً واضحاً على غرق الجماعة في مستنقع الحديدة، حيث حمل مسؤولية اندحار مقاتلي الجماعة في جبهة الحديدة إلى انسحابهم طوعياً لإعالة أسرهم، بسبب تردّي الأوضاع الاقتصادية.

ويحيل هذا الخطاب إلى خطاب قديم لزعيم الجماعة، قبل أيام من هزيمتهم في مدينة عدن، حيث برّر ذلك بانسحاب مقاتليه لاضطرارهم لقضاء العيد مع أسرهم، ما قد يعني تهيئة الجماعة وأنصارها ومقاتليها لأي تطور قد يكون حاسماً في معركة الحديدة في الأسابيع المقبلة.

كما أن تعويل جماعة الحوثي على المجتمع الدولي، لوقف تصعيد التحالف في مدينة الحديدة، لن يدوم طويلاً، فرغم توقف عمليات التحالف مؤقتاً، فذلك مرتبط بمدى جدية انخراط جماعة الحوثي في المشاورات المزمع انعقادها قبل نهاية العام الحالي، ومن ثم فإن أي عرقلة من الجماعة ستؤدي إلى تجدد العمليات القتالية في الحديدة، وربما أكثر من السابق.

يبدو أن جماعة الحوثي ستدفع كلفة انهيارها في جبهة الحديدة باكراً، إذ انعكس ذلك على طريقة إدارتها للمناطق الخاضعة لها، وتحديدًا في العاصمة صنعاء، وكذلك على شبكة تحالفاتها.

فمن جهة، تعيش صنعاء على وقع تطورات معركة الحديدة؛ فبينما تحاول الجماعة، عبر دعوات التحشيد، ومكبرات الصوت التي تجوب المدينة، إقناع الأهالي بأن معركة الحديدة تجري لصالحها، استمرت في تضيق الخناق عليهم، عبر إدارة الأزمات، وكذلك زجهم في المحرقة، إذ جندت مئات من أبناء الطبقات المسحوقة.

كما أجبرت السجناء المحبوسين على قضايا حق عام، بقضاء محكوميتهم مقاتلين في جبهة الحديدة. ومن جهة أخرى، تضععت شبكة تحالفاتها الصغيرة جزاء هزائمها في مدينة الحديدة، إذ إن تغيير موازين القوى العسكرية لصالح القوات المشتركة جعل محسوبيين على القوى المتحالفة مع جماعة الحوثي تهرب من سفينة الانقلاب قبل الغرق النهائي.

فخلافًا لانتشقات سابقة عن الجماعة، حصرت بقيادة محسوبة على حزب المؤتمر الشعبي العام (علي عبدالله صالح)، انتقلت الانتشقات أخيراً إلى محسوبيين على القوى الجنوبية، المتحالفة مع الجماعة، والتي تربطها صلاتٌ غير مباشرة بإيران.

ومن ثم لن يكون وزير الإعلام في حكومة الانقلاب، عبدالسلام جابر، الذي انشق عن الجماعة في منتصف نوفمبر/ تشرين الثاني الحالي، سوى بداية لوجة انتشقات، ستشمل شخصيات سياسية وعسكرية واجتماعية لا تنتمي إلى عصابة الجماعة.

في حين ترجح موازين القوى العسكرية في مدينة الحديدة، حتى الآن، لصالح التحالف العربي والقوات المشتركة، فإن العربية السعودية، قائدة التحالف العربي في اليمن، تترجح تحت ضغط حليفها الأميركي لقطع ثمار انتصار جزئي، أكثر من رغبتها في حسم المعركة ضد خصومها الحوثيين.

فالغطاء الأميركي للعمليات العسكرية للتحالف في الحديدة مرهونٌ أيضاً بعامل الوقت، ومدى قدرة السعودية وشركائها على تغيير موازين القوى لصالحها، إذ يبدو أن أميركا استنفدت وسائلها في دعم السعودية في حرب اليمن، سواء بالمرابطة بإعلانها دعوات التهدئة ووقف القتال في اليمن وإدارتها بشكل غير مباشر معركة الحديدة، عبر مشاركة البننتاغون (وزارة الدفاع) في الهجوم على الحديدة.

وهو ما أكدته وسائل إعلام غربية، كما أن استمرار الإدارة الأميركية في خوض حرب داخلية لحماية حليفها السعودي من أي تبعاتٍ، جزاء قتله مواطنه الصحافي جمال خاشقجي. قد يجعل من العقوبات الأميركية المفترضة مجرد عرض خطابي لا أكثر.

ومن ثم على السعودية تغيير المعادلة العسكرية في مدينة الحديدة، لتخفيف الضغط الداخلي على حليفها الرئيس الأميركي دونالد ترامب، بعد خسارة حزبه الجمهوري في الانتخابات النصفية لمجلس النواب، وإصرار الديمقراطيين على وضع نهاية للدعم الأميركي للحرب في اليمن.

في الحديدة، وفي أحيائها الفقيرة جداً، يجري ماراتون سباق الوقت بين المتقاتلين، وفيما تدور حرب شوارع بين المتقاتلين اليمنيين وحلفائهم، لكسب وهم انتصار حاسم مهما كان الثمن..

حسم لن ينهي الحرب في اليمن، كما يتوهم القتلة، وإنما سيضاعف معاناة أبناء المدينة المنهكين بالجوع والمرض والمليشيات والحصار بكلفتها.

* بشرى المقطري كاتبة وناشطة وروائية يمنية